نصوص آداب العربيّة ... بأي منهج؟؟

أحمد حيدوش

من مسلّمات الفكر اللّغوي الحديث، أنّ لكلّ لغة سماتها وخصائصها الّتي تميزها، وقد تتفرّد بها قياسا الى ما هو مشترك بين مجموعة من الألسنة البشريّة.

هذا المبدأ يثير مجموعة من الأسئلة الإشكاليّة، عن نصوص آداب اللّغة العربيّة في علاق)ا(تها بالمناهج النّقديّة الحديثة والمعاصرة، وتتمثّل أهمّ هذه الأسئلة فيما يلي :

١- ما هي خصائص العربيّة حرفا، وجملة، ومعجما، واصطلاحا و مفهوما ؟

٢- كيف تجلّت هذه الخصوصيّة في نصوص آداب العربيّة الحديثة بصورة خاصّة ؟

٣- إذا كانت المناهج النّقديّة الحديثة و المعاصرة يمكن اختزالها في خمس (٥) زوايا نظر إلى النّص وذلك :

٣-١- من حيث علاق(ا)ته بالفرد الذي انتجه، ومن ثمّ فهو صورة لهذا الفرد على نحو أو آخر، أو هو صورة لعالمه الدّاخلي، يجسّد مختلف العواطف و الرّغبات و الأهواء و الطّماح، وعلينا أن نغوص في أعماق هذا العالم لفهم نتاجه الأدبي وذلك بالارتكاز على علم النّفس بصورة عامّة وعلى التّحليل النفسي بصورة خاصّة.

٣-٢- من حيث علاق(ا)ته بالوسط الذي وجد فيه فهو صورة للواقع على نحو أو آخر فهو يعبّر عن علاقات اجتماعيّة متشابكة تساعدنا الفلسفة الاجتماعيّة وعلم الاجتماع على اكتشاف نوعيّة العلاقات الاجتماعيّة القائمة التي يصوّرها النّص .

٣-٣- من حيث علاق(ا)ته بنفسه بوصفه كيانا لغويّا مغلقا قائما بذاته و لذاته ينمو على وفق شروطه الدّاخليّة الخاصّة به معزولا عن الفرد الّذي انتجه والوسط الّذي وجد فيه، إنّه سلسة من العلاقات اللّغويّة أو هو لغة ولا شيء سوى اللّغة.

٣-٤- من حيث علاق(ا)ته بالقارئ الّذي قرأه والّذي يستمر في قراءته، فلا يأخذ النّص معناه إلاّ بالقراءة ومن خلال القارئ.

٣- ٥- من حيث علاق(ا)ته بالنّصوص الأخرى داخل اللّغة نفسها أو من لغات أخرى.

إذا كان الأمر كذلك، ألا يمكن أن نبني منظومتنا الاصطلاحيّة و المفاهيميّة بحيث يكون رافدها الأساسي المصطلح الذي ورثناه بحيث نجعل له معنى ما، ومفهوما ضمن المنظومة الاصطلاحيّة التي أخذناها من ثقافة العصر وحضارته، ونختزل زوايا النّظر الى النّص في مثلثين مثلث نسمي الأول مثلث العلاقات النسقيّة التي يقيمها النّص مع نفسه، ونسمي الثاني مثلث العلاقات النّسقيّة التي يقيمها النّص مع غيره وهما مثلثان داخل مثلث قابل للتّفرع الى مثلثات أخرى، ونقوم من خلاله بعمليّة تصنيف منتجات القراءات المختلفة التي انتجتها نصوص العربيّة عبر العصور ضمن جدول يمكن أن نسمّيه جدول مكتبة النّص التي أنتجها(مكتبته الخاصّة به)، ضمن زوايا النّظر إليه، وانطلاقا من العلاقات التي أقامها مع القارئ العربي ّ، ونفترض أنّ ملامح خصوصيّة المنهج تحدّد انطلاقا من خصوصيّة لغة النّص

ففي مثلّث العلاقات التي يقيمها النّص مع نفسه، تظهر على سبيل المثال، مملكة الحروف جليّة تقيم علاقات تأثير وتأثّر في سلسلة الكلام (حرف، كلمة، جملة / حرف، اسم، فعل...الخ)

إنّ باب اشتغال الحروف في هذا المثلث باب عظيم، كان قد فتحه القدماء، وتبعهم بعض المحدثين، ولكن من منظور مغاير.

وبذلك تشكّلت نواة مكتبة الحروف التي تهتمّ بتلك النّصوص الأدبيّة التي تشتغل أكثر ما تشتغل على لعبة الحروف، والنّصوص النّقديّة المرافقة لها وذلك في المرحلة الأولى، وفي المرحلة الثّانيّة نحاول أن نعمّم ذلك على باقي نصوص آداب العربيّة فمن مكتبة النّص الإلهي المعجز (القرآن) ونصوص التفسير والتّأويل، الى مكتبة النّص البشري الشّعري والنّثر الفنّي الباحث عن التّفرّد و التّميّز ترتسم ملامح المنهج الذي يشتغل على

الحرف،إذ: »يلاحظ دارس الشّعر العربيّ (النّثر الفنّي أيضا) وجود ظاهرة تكرار الحروف المتشابهة أو المتقاربة في النّص بما يخلق نمطا من الجمال تألفه العين وتأنسه الأذن «١ فالحروف أصوات وأشكال وتجري من السمع مجرى النغم ومن البصر مجرى الألوان.

ولا يدخل هذا في باب ما تقدّمه الأسلوبيّة في هذا الاطار إنّما يتعدّى ذلك الى ما سكتت عنه، جلّ المصادر القديمة و المراجع الحديثة، الّذي سماه " عبد الإله الصّائغ" ب (ظاهرة تداعي الحروف)، ف : » ثمة العديد من النّصوص الفنيّة وبخاصّة الشّعريّة، تصلح ميدانا لمعاينة ظاهرة تداعي الحروف حيث نلاحظ حشدا من الحروف يجتاح القصيدة، فالحرف داخل الجملة أو المفردة يهيّئ السّبيل الى حرف آخر يماثله نغما أو رسما«٢

وكما توحي الحروف بأنغامها وتعاشقها مع بعضها بمعان فإنّها منفردة تقدّم معان خاصّة بذاتها، مثل:

الصّاد ⟷ الهدهد اذا رفع رأسه

الظّاء ⟷ ثدي المرأة إذا انثنت ...الخ.٣

لا شكّ في انّ كونا واسعا يرافق ظاهرة تداعي الحروف، وكيف يتم التّناجي بينها، وكيف تدبّ العصبيّة في قبائلها وعوائل ايقاعاتها بحيث تكون آليات تحليل النّص مشغولة بالجانب النّغميّ، الّذي تؤسسه الحروف وقد يقذف بحر الشّعر المحيط الى شواطئ النّقد عددا من النّصوص التي توكل أمر الدّلالة الجمعيّة الى تذويب الحرف، وتؤسّس شعريّتها على شفرات الحروف ٤

لقد تأسّست نصوص كثيرة في آداب العربيّة على الحرف، وعلينا أن ننظر الى هذه النّصوص كما ينظر الفنّان التّشكيليّ، و سنجد أنفسنا قبالة تكوينات مذهلة وعلاقات غريبة بين الحرف ونظيره، والآخر وشبيهه قائمة على النّماهي مرّة والتّجاذب أخرى والتنافر ثالثة ٥

واذا بعض النّصوص تلعب فيها الحروف لعبة تجعلها من عجائب نصوص العربيّة، فانظر لي ما يرويه "ابن الجوزّي" حيث قال :»تفاوضت وانا وبعض الاصدقاء في حروف الهجاء، فادّعى أنّه لا يصح كلام إلاّ بمجموعها، ولا يستقيم لفظ تامّ إلاّ بوجود جملتها، وحدّثني بخطبة معه منظومة محذوف منها حرف الألف فانتهضت القوّة الى الانتصار لإنشاء خطب حذفت من كلّ خطبة منها حرفا من حروف الهجاء وختمتها بخطبة ليس فيها نقطة فصارت ثلاثين خطبة وقد وسمتها بكتاب عجيب الخطب «٦

إنّ طرق هذا الباب يفتح أمام القارئ العربيّ النّاقد آفاقا رحبة تجعل القدامة تتعانق مع الحداثة، ومع ما بعد الحداثة في حياتنا الادبيّة المعاصرة دون أن ينقطع تيّار القديم، وبذلك تتحدّد معالم منهج خاصّ بنص العربيّة يأخذ على عاتقه مهمّة البحث في اشتغال حروف العربيّة في النّص وكيف يلعب دورا في تشكيله من حيث المبنى والمعنى ف:» المعاني جائزة يحصل عليها المتلقّي حيث يفهم الجدل الغامق بين الحروف وعلامات الترقيم و الكلمات والبياض وفضاءات النّص«٧

ومن خلال علاقات هذّا المثلث (حرف، كلمة، جملة)تترسم في الأفق ملامح رؤية (نظريّة)عربيّة نقديّة لنصوص آداب العربيّة يمكن أن نطلق عليها مثلث التواصل النّسقي داخل النّص، وهو مثلث مرتبط بالضرورة بباقي المثلثات، أو هو مثلث يبحث في التواصل النّسقي بين مثلثات النّص مع بعضها البعض تواصلا نسقيا على وفق نظام مطرد (حرف، كلمة، جملة\ حرف،اسم،فعل...الخ) فللحروف حمولتها المعجميّة وثّقافيّة والبصريّة والسّمعيّة، وكذا الاسماء والأفعال وقس على ذلك.فللعربيّة أسماؤها الخاصّة وهي تحمل مدلولات تدخل ضمن مكونات الذاكرة الجماعيّة لنصوص آداب العربيّة .ويمكن أن تنتهي مثلّثات التواصل النّسقي هذه إلى مثلّث الرّغبة في النّصوص العربيّة لنكتشف مدى تطابق مثلّث الرّغبة، في هذه النّصوص مع مثلّث الرّغبة كما صاغه " رينيه جيرار" ٨

وهنا يمكن أن تكون الإضافة – اضافتنا – الى النّظريّة، انطلاقا من خصوصيّة نصوص آدب العربيّة وقراءتها.

وهنا ننتقل الى مثلّث العلاقات التي أقامها النّص مع الآخر (الفرد، الجماعة،القارئ، النّصوص الأخرى .... الخ)، اذ من خلال مثلّث الضّمائر على سبيل المثال (أنا، أنت، هو) يمكن أن يتجلّى ذلك على النّحو التالي:

أنا: الرّاغب

أنت: الموضوع

هو : المعارض | الوسيط

لقد وجد " بنفينيست " في الضّمائر العربيّة » تصوّرا صائبا للعلاقات بين الأشخاص٩

فلماذا لا نجد فيها نحن تصوّرا صائبا للعلاقات بين الجمل المنسوبة إليها فهي تبدو ذات أهميّة خاصّة من حيث فهم

طبيعة ال (انا) أو الذّات المبدعة وتمظهر الآخر أيّ الموضوع الذي توجه إليه الرّسالة التي تحمل رغبة ما، ويمكن أن نحصر كلّ ما نعثر عليه مبعثرا في نصوص العربيّة من جمل منسوبة الى الضّمائر في علاقا(ا)تها بموضوع الرّغبة والمعارض | الوسيط وتكون مدونة للدراسة:١٠

» وإذا كانت تحديدات "بنفينيست" تؤكّد على انّ التّكلّم الشّعري يتضمّن حديث "أنا" المتكلّم عن نفسها، على أنّه حديث يخصّها ويعيّنها بما هي عليه بالضرورة، لا بما تقوله عن نفسها، وهي أقوال بالتّالي قد لا تكون متطابقة بل متخيّلة أو مرغوبة، دون أن يتّضح في التّكلّم المطابق من المتخيّل، إلاّ أنّه مع ذلك فانّ الخطاب ضمير المتكلّم يكشف عن منزع نفسيّ يميّز شاعرا من شاعر، وقد يكون ذلك المنزع ضاربا في تكوين الشّاعر، إذ يعبر التّركيز على استخدام كلمة أكثر من الأخرى عن دلالات نفسيّة اجتماعيّة خاصّة في مواقف التّفاعل الاجتماعيّ بين الفرد الآخرين « ١١

فالضّمير: » يكشف كثير من خصائص شخصيّة الفرد الذّاتيّة، كالتمركز حول الذّات أو التمركز حول الجماعة «١٢، فنسبة أنا- نحن، تقاس بنسبة : » تكرار الفرد لكلمة أنا، أو ما يقابلها من كلمات تعبّر عن الأنا في المواقف الاجتماعيّة المختلفة، وذلك من كلمات تفيد المعنى نفسه«١٣

ويقاس على ذلك استخدام الضميرين (أنت، هو)

يبدو الآخر في الجمل المنسوبة، للضّميرين عادة وكأنّها عبارة عن دائرتين تتوسعان تدريجيا تتصلان أو تنفصلان، أو هما دائرتان، إحداهما يحدث فيها التجاور والاتصال والتّوحد أحيانا، وثانيهما يحدث فيها التّنافر والتّباعد والانفصال، إنّ الآخر – الموضوع – يتحدّد دائما بأنّه ذلك الكائن الذي تتّجه إليه الرّغبة حبّا أو كراهيّة، ومن هنا يمكن أن نطلق على الشكل التّخاطبيّ بين الضمائر في القصيدة العربيّة مصطلح: المثلّث التّخاطبيّ الّذي تتحدّد علاقات التخاطب فيه بثنائية الحب والكراهيّة.١٤

إنّ الانطلاق من مثلث الضّمائر يمكن أن يقودنا إلى حصر النّصوص التي ترتبط بثنائيّة الحب و الكراهيّة في شعر الغزل وشعر الهجاء وتجليات ذلك عبر العصور ومن خلال مجمل النصوص العربيّة بما في ذلك نصوص الأخبار القديمة التي تملأ الكتب العربيّة، ومن خلال ذلك تدخل الثّنائيات في إطار مثلث الضمائر كثنائيّة الجسد والروح، وثنائيّة المذكّر والمؤنّث ...الخ .

فدراسة ظاهرة المذكّر والمؤنّث من خلال المثلّث، في الأدب العربيّ على سبيل المثال من خلال تجلياتها والانفعالات التي تثيرها قد تكشف عن خصوصيّة اللاّوعي في نصوصها انطلاقا من خصوصيّة لغتها (العربيّة) في التّذكير والتّأنيث، هكذا يغدو البحث عن اللاّوعي في النّص كشفا عن خصوصيّة اللّغة، وخصوصيّة اللّغة تكشف عن اللاّوعي في النّص،فنصوص آداب العربيّة مسكونة بلغة رغبة خاصة ١٥تكشف عنها مختلف الضمائر المتصلة منها والمنفصلة بل وتكشف عنها التّقعيدات التي وضعت لها فترتيب الضمائر مثلا تنطلق من مبدأ الأولى أن يبدأ الانسان بنفسه لأنّها أهم و أعرف عنده،وكما كان المختار أن يبدأ بنفسه كان المختار تقديم المخاطب على الغائب لأنّه أقرب الى المتكلم١٦ أولأنّ : »الأعرف هو المتكلم ثمّ المخاطب ثمّ الغائب « ١٧

من كلّ ما سبق يمكن أن نتصوّر اشتغال النّصوص العربيّة ضمن مثلّثين،مثلث العلاقات التي يقيمها النّص مع نفسه ومثلث العلاقات التي يقيمها النّص مع غيره ونقوم بتطبيقات واسعة على مختلف النّصوص بعد أن نحدّد النصوص الأصيلة والنّصوص المتفرّعة، أولم يختزل "ابن خلدون" أصول فن الأدب وأركانه في أربعة كتب، وما سواها فهي تبع لها وفروع منها فلنحدد مدوّنة النّصوص العربيّة المؤثّلة وتفرعاتها وبذلك نكتشف الخصوصيّة و التفرد انطلاقا من القراءة المتفردة المتميزة عن باقي القراءات.

إذا كانت هذه المقاربة النّقديّة تنطلق من خصائص العربيّة وتعتمد على حروفها، وكلماتها، وجملها، وتصنع منظومة اصطلاحيّة رافدها التراث، ومنظومة مفاهيميّة رافدها

(ثقافة العصر الحضاريّة) مناطها الثقافة الغربيّة على اعتبارها السائدة،في إنتاج مثلّث التّواصل النّسقيّ، فهل يمكن لهذا المثلّث أن يستوعب النّص من زواياه الخمس؟ وهل نختزل المثلّث في زاويّة واحدة أثناء التّطبيق ؟ وماهي الإجراءات التّطبيقيّة لهذه المقاربة الجديدة قبل أن نطلق عليها اسم المنهج ؟ وهل يمكن أن نعتبرها مقاربة على مستوى زاوية النظر الخامسة (التناص) ذلك ما سيوضحه الجانب التطبيقي على نص : "رسالة الغفران للمعري".

مخطّط التطبيق

١. الموضوع: مثلث التواصل النّسقي في رسالة الغفران للمعري.
١,١ مدونة الموضوع: رسالة الغفران
٢,١ مراجع مدونة الموضوع (القراءات السابقة لقراءتي عن رسالة الغفران)
٢. المنهج:مثلّث التواصل النسقي
١,٢ مدونة المنهج
٢,٢ مراجع مدونة المنهج (قراءة الآخر لمدونة المنهج)
٣. قراءتي للمدونة (يجب أن تنطلق بالضرورة من قاعدة مفادها أنّ للنّص وجوها عديدة الواحد منها لي ووجوهها الأخرى لغيري)

الهوامش:

١. عبد الإله الصّائغ: الخطاب الشّعري الحداثويّ و الصّورة الفنيّة الحداثة وتحليل النص، المركز الثّقافي العربيّ، بيروت١٩٩٩،ص ١٥٩.

٢. ينظر : نفسه،ص١٧٠.

٣. ينظر: نفسه، ص ١٧٦، ١٧٤.

٤. ينظر:نفسه،ص١٨٩.

٥. ينظر:نفسه،ص١٩٠.

٦. ابن الجوزي: عجيب الخطب، ضمن كتاب مجموعة رسائل ابن الجوزي في الخطب و المواعظ و الحكايات والفوائد العامة، تح :هلال ناجي ووليد بن أحمد الحسين، سلسلة اصدارات الحكمة،بريطانيا٢٠٠٠،ص٩٩.

٧. عبد الإله الصّائغ: الخطاب الشعري الحداثوي و الصّورة الفنيّة،ص١٨٦ .

٨. Emile Benveniste، problèmes de l'linguistique générale، Gallimard paris ،١٩٦٦ P، ٢٢٨.

٩. ينظر: أحمد حيدوش، إغراءات المنهج وتمنّع الخطاب، دار الأوطان، الجزائر ٢٠٠٩، ص ٧٥ وما بعدها .

١٠ . ينظر: نفسه، ص ٩٢.

١١ . فرج عبد القادر طه و آخرون: معجم علم النّفس و التحليل النّفسي،دار النّهضة العربيّة، ط١، بيروت (د.ت) ،ص ٤٥٥.

١٢. نفسه، ص ٤٥٥ .

١٣. أحمد حيدوش، إغراءات المنهج وتمنّع الخطاب،ص٩٢.

١٤. فرج عبد القادر طه وآخرون،نفسه،ص٤٥٥.

١٥. نفسه، ص ٤٥٥.

١٦. أحمد حيدوش، إغراءات المنهج وتمنّع الخطاب، ص ٩٤-٩٥.

١٧. نفسه، ص١٥ وما بعدها.

١٩. ينظر: محمد حفيظ، الضمير العربي، دراسة لسانيّة توليديّة لنسق الضمائر في اللّغة العربية، فاليه للطباعة والنشر والتوزيع، المغرب ٢٠١٥،ص ٣٧.

٢٠. رضي الدين الاستراباذي: شرح كافيّة ابن الحاجب، دار الكتب العلميّة، بيروت ١٩٨٢،ص ١٨.